

معنى الأخوة والصداقة في النثر العربي (من الجاهلية الى أواسط القرن الثالث)

بقلم : صالح بن رمضان

لا يخلو مجتمع انساني ، على وجه البسيطة ، من روابط تصل بين أفرادهِ ، وتحدّد ملامح الحياة الاجتماعية فيه ، ومن البديهي أن يكون رابط الأخوة أهم رابط ينشأ بين الأفراد والجماعات . فالأخوة تعني ، في مدلولها الأوّل ، علاقة التماسك والتآزر بين مجموعة من الأفراد ، تنسب إلى أب واحدٍ أو قبلية واحدة .

غير أن الأخوة اكتسبت مدلولاً ثانياً ، وأصبحت تعني رابطة الصداقة ، فقد جاء في اللسان : « الأخ قد يكون الصديق والصاحب ، ويقال للأصدقاء وغير الأصدقاء إخوة وإخوان » (1) .

والصداقة رابطة وجدانية تنشأ بين أفرادٍ لا يجمع بينهم نسبٌ في الولاة ، وهي علاقة اجتماعية تؤسس على قيم مثلى ، يُقرّها المجتمع ، ويدّين بها . ويساعد على استحكام صلة الصداقة واستمرارها ما يحدث بين الأفراد من تفاعل وجداني وفكري ، وما يجمع بينهم من اتفاقٍ في الخلق ، ومن تشاكلٍ في السلوك . فكلّما كان التواجد بين الأصدقاء أعمق كانت الصداقة أمتن وأبقى .

وقد تطرّق الأدب العربي القديم الى موضوع الصداقة ، فاهتم به الشعراء والناثرون على السواء . وقد لاحظنا أنّ الصداقة أصبحت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة موضوعاً أدبياً تُؤلف فيه كتبٌ ورسائلٌ مستقلة . ولاحظنا كذلك أنّ التأليف في هذا الموضوع مرّ بمرحلتين كبيرين : تمثّل الأولى مرحلة نشأة الحديث عن الصداقة في النثر العربي ، وتأسيس الكتابة فيها مع عبد الحميد بن يحيى الكاتب وعبد الله بن المقفع ، والجاحظ وابن قتيبة .

وتمثّل المرحلة الثانية مرحلة الأزمة التي عرفتتها هذه الرابطة الاجتماعية في مجتمع القرن الرابع . وقد عبّر عنها أبو حيان التوحيدي في تأليفه الشهير « الصداقة والصدق » .

وسنقتصر في هذا البحث على دراسة مفهوم الصداقة أو الأخوة في النثر العربي إلى أواسط القرن الثالث (تاريخ وفاة الجاحظ) . وسنسعى إلى إبراز العوامل الاجتماعية والثقافية التي أدّت إلى استقرار هذا المفهوم ، وتبلور القيم المتصلة به . وسنبحث أخيراً عن قيمة التأليف في الصداقة من الناحيتين الأدبية والحضارية .

(I) الأخوة والصداقة في النثر الجاهلي :

لم يكن للصداقة في المجتمع الجاهلي مكانة ذات بال ، ولم تنشأ بين الأفراد علاقات خاصة يمكن أن ننعثها بأنها صداقات . فقد كانت الحياة الاجتماعية ، في العصر الجاهلي تخضع للنظام القبلي ، وكانت العلاقات الإنسانية تُبنى على أساس الرابطة الدموية ، داخل القبيلة ، وعلى أساس التحالف والجوار ، خارجها . وكان وجدان الفرد يذوب في هذا البناء الاجتماعي ، فنرى الجاهلي يسخر طاقاته الشعورية والمادية لنصرة القبيلة ، والوفاء لأبنائها .

ولئن كان النظام القبلي يدين بمجموعة من القيم الإنسانية تتجاوز الرابطة الدموية ، كالكرم ، والوفاء ، والإغاثة ، فإنه يرمي بالمحافظة على هذه

القيم ، إلى تنظيم الحياة الاجتماعية بين الجماعات التي كانت تعيش في بلاد العرب آنذاك ، ويسعى بها إلى تحقيق أمن القبائل ، واستمرار بقائها .

ولئن حدّثنا الشاعر الجاهلي عن علاقاته بالنديم والصاحب في مجلس الخمر ، وبالرفيق في السفر ، وبالخليل في الوقوف على الأطلال ، فإنّ هذه العلاقات ترتبط بظروف مخصوصة ، ولا تفني بمعنى الصداقة .

فليس بغريب أن تقوم الروابط الوجدانية ، في هذا المجتمع على مفاهيم عصبية ، وليس بغريب كذلك أن يخضع التماسك بين الأفراد لمنظومة القيم القبلية ، وأن تكون الأخوة في الولادة والنسب أقوى الروابط الاجتماعية ، وأشدّها تأثيراً في حياة الجاهلي .

وقد دعا الجاهليون في أمثالهم وحكمهم الى التمسك بهذه الأخوة ، فعبرت هذه الأقوال الماثورة عن تعلّق الضمير الاجتماعي برابطة الأخوة في الولادة تعلّقاً شديداً .

ونقتصر في هذا السياق على ذكر صنفين من هذه الأقوال هما :

(1) الأمثال : وهي أقوال ماثورة ، « يرتبط كلّ واحد منها بحادثة مخصوصة » .

ويصاحب المثل قصّة ، أو خبر يُفسّره ، ويمكّن الناس من استعماله في سياقات شبيهة بالسياق الذي ضرب فيه لأول مرّة (2) .

وقد رافقت بعض الأمثال قصص تشيد بالأخوة ، وتصف نماذج من أخلاق الجاهليين تبرز فيها نصرة الأخ لأخيه ، نذكر منها قولهم :

« إِنَّ أَخِي كَانَ مَلِكِي » (3) . فهذا المثل يُنسب إلى رجل اسمه أبو حنّس الثعلبي ، قتل شرحبيل عمّ إمرء القيس أخاه ، وأراد أن يعطيه دية ، فأبى ، فقال له : أملكاً بسوقه ؟ فقال أبو حنّس : إِنَّ أَخِي كَانَ مَلِكِي .

(2) هذا التعريف مستوحى من دروس التبريز التي ألفها الأستاذ عمّد اليعلاوي ، بكلية الآداب ، تونس 1982 - 1983 ، وهي في الأمثال والحكم .

(3) انظر : الميداني ، مجمع الأمثال ، ط 2 ، بيروت د-ت ، ج 1 ، ص 59 ، 60 .

(2) أقوال مأثورة واضحة المدلول : ترد هذه الأقوال كذلك في سياق قصصي ، يُبرز مدى تعلق الجاهليين بصلة القرابة والنسب . غير أن العبارة المثلية نفسها تصرّح بالمعنى ، فلا يحتاج السامع إلى جهد فكري كبير كي يقف على القيمة الأخلاقية التي تشيد بها . وذلك كقولهم : « مِنْكَ أَنْفُكَ وَإِنْ كَانَ أَجْدَعُ » (4) وقولهم : « إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهَنْ » (5) ، وقولهم : « إِذَا حَزَّ أَخُوكَ فَكُلْ » (6) .

غير أن الذي يطالع كتب الأدب وكتب الأمثال يلاحظ أن أصحابها يوردون مجموعة من الحكم والأقوال المأثورة يتجاوز فيها معنى الأخوة المفهوم الجاهلي ، فهي أقوال تعطي الأخوة معنى جديداً يتجاوز التصور القبلي ، ويمهد لظهور مفهوم الصداقة . ونذكر منها قولهم : « إِنَّ أَخَاكَ مِنْ آسَاكَ » (7) وقولهم : « أَخُوكَ مِنْ صَدَقِكَ النَّصِيحَةِ » (8) .

كما نسب الرواة إلى أكثم بن صيفي حكماً عديدة ، فيها ذمٌ صريح لرابطة الأخوة في الولادة ، وتفصيلٌ للروابط التي تصل بين أفراد ، لا يجمعهم نسبٌ واحدٌ . فهو يقول : « رَبٌّ بَعِيدٌ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَالْقَرِيبُ مِنْ قُرْبٍ نَفْعُهُ ، وَرَبٌّ غَرِيبٌ نَاصِحٌ الْجَيْبِ ، وَابْنُ أُمِّ مَتَّهِمٍ الْغَيْبِ » (9) .

إلا أن توثيق هذه الأقوال غير دقيق : فبعضها مجهول المصدر وبعضها يُنسب إلى شخصين مختلفين في آنٍ . فحُكِّمُ أكثم بن صيفي منسوبة كذلك إلى بزرجمهر الفارسي (10) . وهو أمر يجعلنا لا نظمن إلى دراسة مفهوم الصداقة في الجاهلية من خلال هذه المادة الأدبية .

(4) المصدر نفسه ، 330/2 .

(5) المصدر نفسه ، 33/1 .

(6) المصدر نفسه ، 73/1 .

(7) جمع الأمثال ، 99/1 .

(8) انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ط 2 ، القاهرة 1952 ، ج 3 ، ص 77 .

(9) المصدر نفسه ، 76/3 .

(10) المصدر نفسه .

II معنى الأخوة في القرآن :

أعطى القرآن الكريم معنى الأخوة بعداً جديداً ، فأضاف إلى معنى الأخوة في الولادة ، معنى الأخوة في الدين أو الانتهاء الى رابطة روحية عقدية واحدة . واستعمل صيغتي الأخوة والإخوان للدلالة على معنى الأخوة في الولادة كما استعملها للدلالة على معنى الأخوة في الدين . فقال تعالى في السياق الأول : « فَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » (11) . وقال : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ حَرَجٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ » (الآية 12) .

وقال تعالى في السياق الثاني : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (13) . وقال كذلك : « أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ ، فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » الآية (14) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى دور الاسلام في تطوير مفهوم الأخوة وفي تأسيس روابط وجدانية واجتماعية جديدة ، فقال : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ، وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » الآية (15) .

ودعا الى الحد من تاثير الرابطة الدموية في شعور الفرد وأخلاقه وسلوكه ومصيره ، قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ، إِنَّ أُسْتَحْبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (16) .

(11) يوسف 58 .

(12) النور 61 .

(13) الحجرات 10 .

(14) الأحزاب 5 .

(15) آل عمران 103 .

(16) التوبة 23 .

لقد أسهم مفهوم الأخوة ، كما ورد في القرآن الكريم ، في تطوير هذه الرابطة وتوسيع مدلولاتها ، فأصبحت العقلية الاجتماعية قادرة على تصوّر روابط وجدانية خارج حدود القبلية . واكتسبت الأخوة شيئاً فشيئاً أبعاداً جديدة اقتربت بها من معنى الصداقة .

III عوامل نشأة الصداقة وتطورها :

إنّ الصداقة قيمة من القيم المثلى يتواضع عليها أفراد المجتمع ، ويعملون على تحقيقها في حياتهم الخاصة . لذلك ، فإنّ نشأتها وتطورها لا يتمّان بمعزلٍ عن تطوّر سلّم القيم الاجتماعية بصورة عامّة . فما الصداقة الا عنصر في نظام أخلاقي قيمى متكامل . وتتأثّر الصداقات بالوسط الاجتماعي الذي تنشأ فيه فنتمو وتستمرّ ، أو تفتّر وتلاشى .

وقد نشأت الصداقة في المجتمع العربي الإسلامي ، وتطوّرت نتيجة التحوّلات الحضارية الكبرى التي عرفها هذا المجتمع منذ ظهور الاسلام .

ولئن استمر تأثير النظام القبلي في عقلية الجماعة ، فإنّ مشاغل المجتمع الجديد ، ومثله الأخلاقية ، ورواه الفكرية أقرّت بين الأفراد انماطاً من العلاقات جديدةً ، وأوجدت بينهم روابط انعدمت في الحياة القبلية .

وعمل الأدب النبوي وأقوال الخلفاء وتعاليمهم على تغيير طرق التعامل بين الأفراد والجماعات ، وعلى إرساء مفهوم جديد للأداب الاجتماعية ، وللروابط الأخلاقية والوجدانية . يقول الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور متحدّثاً عن تطوّر معنى الأخوة ، بعد ظهور الإسلام : « فلا جرم أنّ الأخوة أصبحت رابطةً بين المسلمين أينما كانوا من الأقطار ، وقد بطلت بها عصبيات ثلاث كانت من أسباب الجمع والتفريق في العرب وغيرهم وهي : النسب ، والحلف ، والوطن . إذ كانوا في الجاهلية لا يجدون سبيلاً إلى التعاضد والتناصر إلّا بإحداها . فأما عصبية النسب فبطلت بصريح قول النبي صلى الله عليه وسلّم « ما بال دعوى الجاهلية ، دَعُوها فإنّها منتنة » . وأما الحلف

فبطله حديث جبير بن مطعم في صحيح مسلم ، قال رسول الله « لا حلف في الإسلام وأيما حلف في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة » وأما عصية الوطن فأبطلها قوله صلى الله عليه وسلم « تجدد المسلمين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (17) .

وتواصل هذا التحول في الروابط والعلاقات فتعددت مظاهره بتعدد المذاهب السياسية والدينية ، والمدارس الفكرية واللغوية . فانتمى الناس إلى فرق سياسية دينية كالشيعة والخوارج ، وغيرهما ، وإلى مدارس كلامية كالمعتزلة ، وإلى مدارس لغوية كمدارس النحو .

وأفرز النظام الاجتماعي طبقات سياسية ومهنية عديدة ، كطبقة الكتّاب ، والحجّاب ، والجند ، والتجار ، والصيارفة والورّاقين وغيرها كما نشأت فيه أوساط جديدة يلتقي فيها الناس كمجالس الأدب والمناظرات (18) .

لقد أثرى هذا التحول وسائل التواصل بين الناس ، وأعطى الفرد منزلة في حياة الجماعة ، ومكّنه من صياغة تصوّر جديد للروابط الاجتماعية ، في أبعادها الفكرية والوجدانية والأخلاقية .

وإذا بحثنا عن صدى هذا التحول في النثر العربي فإننا نستطيع أن نترسّمه في نوعين من الأشكال النثرية ، هما النثر الشفوي ، والنثر المكتوب .

(17) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، تونس 1979 ، ص 120 .

(18) تبرز في هذه المجالس العلاقات الوجدانية التي كانت تجمع بين الناس .

جاء في العقد الفريد : « وقال محمد بن يزيد النحوي : أتيت الحليل فوجدته جالسا على طنفسة صغيرة ، فوسّع لي ، وكهرت أن أضيق عليه ، فأنقبضت فأخذ بعضدي ، وقرّني إلى نفسه ، وقال : إنه لا يضيق سُمّ الخياط بمتحابين ولا تسع الدنيا متباغضين » العقد الفريد ، الطبعة المذكورة أعلاه ، 316/2 .

IV معنى الأخوة والصدقة في النثر الشفوي :

إنَّ التعبير عن القيم المثلى والمعاني الأخلاقية في النثر الشفوي ، يعكس تصوّر ضمير الجماعة لها ، وإحساسه بها . وتزداد هذه القيم والمعاني انتشاراً في الناس ، بقدر ما تتعدّد مصادر هذا النثر ويكثر قائلوه .

وتتضمن كتب الأدب مادة أدبية غزيرة قيلت في موضوع الصّداقة ، وصيغت في أشكال تعبيرية مختلفة كالأقوال المأثورة ، والخطب ، والوصايا ، والمحاورات . وهي منسوبة إلى أصحابها منذ عهد الخلفاء الراشدين إلى أواخر القرن الثالث .

فقد أخذ معنى الصداقة في أقوال الخلفاء الراشدين بعداً عملياً تعليمياً . فكان حديثهم عنها يرمي إلى نشر آداب المعاملة بين الناس ، يقول عمر بن الخطاب : « ثَلَاثُ ثُبُتٍ لَكَ الْوَدَّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ : أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ ، وَتَوْسِعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ » (19) .

ويرمي كذلك إلى إعانة المخاطبين على اختيار الصديق الأمثل وفق معايير أخلاقية وسلوكية ، يقول علي بن أبي طالب في وصية لابنه الحسن : « يَا بَنِي إِيَّاكَ وَمَصَادَقَةُ الْبَخِيلِ فَإِنَّهُ يَبْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ . وَإِيَّاكَ وَمَصَادَقَةُ الْفَاجِرِ فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافَةِ ، وَإِيَّاكَ وَمَصَادَقَةُ الْكَذَّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يَقْرَبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ ، وَيُبْعِدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ » (20) .

واقترض الهدف التعليمي التوجيهي أن يُصاغ معنى الأخوة والصدقة في أسلوب حكمةٍ يجمع بين المعنى الواضح والعبارة الموجزة يقول الأحنف بن قيس (ت 72 هـ) : « خَيْرُ الْإِخْوَانِ إِنْ اسْتَغْنَيْتَ عَنْهُ لَمْ يَزِدْكَ فِي الْمَوَدَّةِ ، وَإِنْ احْتَجْتَ إِلَيْهِ لَمْ يَنْقُصْكَ مِنْهَا ، وَإِنْ كُوْثِرَتْ عَصَدُكَ ، وَإِنْ اسْتَرْفَدْتَ رَفْدُكَ » (21) .

(19) العقد الفريد ، 311/2 .

(20) نهج البلاغة ، ط مصر ، د . ت . ج 2 ، ص 147 .

(21) العقد الفريد ، 304/2 .

غير أنَّ البعد العملي في هذه المادة الأدبية لم يمنع قائلها ، وخاصة المتأخرين ، من اعتماد أساليب فنية عديدة ، يُخرجون فيها المعاني التعليمية ويعبرون بها عن المضامين الأخلاقية : « قال رجل لمطيع بن إياس : جئتُك خاطباً مودَّتكَ ، قال قد زوجتكها على شرط أن تجعل صَدَاقَهَا آلاً تسمع في مقال الناس » (22) .

وقد اعتمد بعضهم أسلوب السجع ، وهو فنٌ يساعد القول على أن يُحفظ وينتشر في الناس . يقول شبيب بن شيبه (ت 170 هـ) (« إخوان الصفاء خيرٌ مكاسب الدنيا ، هم زينةٌ في الرخاء ، وعدةٌ في البلاء ، ومعونةٌ على الأعداء » (23) .

(٧) صدى مفهوم الصداقة في النثر المكتوب :

تكشف لنا بعض الفنون الأدبية النثرية التي بدأت ملامحها تتحدّد في العصر الأموي عن بداية تأثير الروابط الوجدانية في التعبير الأدبي المكتوب . فقد نشأ في هذا العصر فنٌ نثري اصطلح على تسميته « بالإخوانيات » . وهي رسائل قصيرة يتبادلها الأصدقاء والأقارب في شؤونهم الخاصة ، ويكتبونها في مواضيع مختلفة كشكوى الزمن ، والعتاب ، والاعتذار ، والتعزية ، والتهنئة ، والشفاعة وغيرها .

وأسهّم هذا الفن في تطور العلاقات الخاصة بين الأفراد باعتباره أداة من أدوات التواصل الاجتماعي .

وساعد ازدهارُ صناعة الكتابة ، وتطوّر أدواتها على انتشار هذه التقاليد فصار التواصل عن طريق المكتوب ظاهرة حضارية يعتمد عليها الناس في مناسبات

(22) المصدر نفسه ، 311/2 .

(23) المصدر نفسه ، 304/2 .

مختلفة . وقد سجّلت لنا رسائل العصر العباسي الظروف التي تنشأ فيها الصداقات ، ومختلف العلاقات التي تجمع بين الأصدقاء (24) .

غير أنه لا يهمننا ، في هذا البحث ، سوى الرسائل التي تناول فيها أصحابها الصداقة أو الأخوة باعتبارها مفهوماً مجرداً . فتحدّثوا عن تصوّراتهم لها ، وذكروا مقوماتها وأهدافها .

ولعلّ أهم رسالة تمثّل هذا الاتجاه في التأليف هي الرسالة التي كتبها عبد الحميد بن يحيى الكاتب (قتل سنة 132 هـ) في وصف الإخاء .

(1) معنى الإخاء عند عبد الحميد الكاتب :

يمكن أن نعدّ هذه الرسالة أوّل نصّ ثري مكتوب يصوّر رابطة الأخوة في معنى الصداقة (25) . ولئن كانت موجّهة الى شخص بعينه (26) فإنّها تتجاوز ، في مضامينها وصياغتها ، العلاقة بينالكاتب والمرسل اليه إلى وصف معنى الإخاء وصفاً مجرداً ، لا يرتبط بظرف ذاتي . يقول عبد الحميد مخاطباً قارئ الرسالة : « قد حدّدت لك أي أخي الإخاء متشعباً ، ووصفته لك مخلصاً ، وانتهيت بك الى غاية أهل العقل منه ، وما تواصل أهل الرأي عليه ودعا إليه الإخاء من نفسه » (27) .

وتبدو في هذه الرسالة نزعة الكاتب الى الالمام بمعنى الصداقة او الأخوة وحرصه على سبر أغوار هذه الرابطة ، وترسم أطوارها . فقد تحدّث عن

(24) تعكس هذه الرسائل جانباً من جوانب حياة الشعراء والكاتب والوزراء ، القرن الثالث على وج ، الخصوص ، وهي تتجاوز في مضامينها موضوع الصداقة فتجد رسائل في الغزل ، وفي التقرب والاستعطاف ، وفي الذم والهجاء ، وفي غيرها من المواضيع التي كانت تشغل الناس في ذلك العصر .

(30) المصدر نفسه ، ص 435 .

(31) المصدر نفسه ، ص 436 ، 437 .

(25) توجد هذه الرسالة ضمن جبهة رسائل العرب ، جمع أحمد زكي صفوت ، ط 1 ، القاهرة 1937 ، ج 2 ، ص ص 434 - 438 . وهي في أربع صفحات ، من القطع المتوسط .

(26) لم يذكر اسمه .

(27) المصدر المذكور ، ص 437 .

الأسس التي تنبى عليها ، وذكر العوامل التي تساعد على عقدتها ، فقال : « فَإِنَّ أَوَّلَى مَا اعْتَزَمَ عَلَيْهِ ذَوُو الْإِخَاءِ ، وَتَوَاصَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَوَدَّاتِ ، مَا دَعَا أَسْبَابُهُ صَدْقَ التَّقْوَى ، وَبُنِيَتْ دَعَائِمُهُ عَلَى أُسُسِ الْبِرِّ » (28) . ثم حدّد مقومات الأخوة ، وأسباب اتّصالها ودوامها فقال : « ثم أنهد البناء حريزُ التواصل وشيّدته مستعذبُ العشرة ، فأدغم قويا ، وصفاً مونقا » (29) .

وقد تتبّع الكاتب عملية إنشاء الصداقة أو الأخوة وانتهى الى وصف الهدف الذي تنعقد من أجله الصداقات ، وهو تحقيق الانس وإرضاء رغبة النفس في التواصل الوجداني ، يقول : « فإذا استحكّم لهم مذخورُ الصفاء ، بثبات أواخيه ، وظهور أعلامه (.) كان سرورهم بأعتلاقه وأبتهاجهم بوجوده » (30) .

ويعبر عبد الحميد ، في رسالته هذه ، عن تحوّل عميق في معنى الأخوة ومقوماتها ، وعن تصوّر جديد للتقارب بين الأفراد ، تصوّر لا يقوم على صلة الرحم ، والقرباة في النسب ، بل يقوم على التجانس الأخلاقي والتشاكل الوجداني ، يقول في وصف علاقة الأخوة والصداقة : لا يدخل مستحقّها سامة ملل ، ولا كلال مهنة ، ولا تثبيط ونيّة ، وضعف خور لنزول بائقة أو طروق طارقة ، من عوارض الأقدار وحوادث الزمان ، بل مواسياً في إزمها ، متورّطاً غمرات قحمها (.) غير منان بالنصرة ، ولا برّ بالتعب ، يرى تعبهُ غنياً ، ونصبه دعةً ، وكلّفه فائداً ، وعمله مقصراً ، وسعيه مفرطاً ، واجتهاده مضيعاً ، عدل الولد في برّه ، والوالد في شفقتة ، والأخ في نصرته ، والجار في حفظه ، والذخر في ملكه ، فأين المعدل عن مثله ؟ أو كيف الاصابة لشبهه ؟ » (31) .

(28) المصدر المذكور ، ص 434 .

(29) المصدر المذكور ، ص 435 .

(30) المصدر نفسه ، ص 435 .

(31) المصدر نفسه ، ص ص 436 ، 437 .

لقد صَوَّر الكاتب رابطة الأخوة أو الصداقة بما تتضمنه من أبعاد جديدة فجعلها تنافس كل الروابط الأخرى ، كالأبوة والأخوة والجوار ، بل جعلها تقوم مقامها . وهي حسب هذا التصوير ، أثري العلاقات الانسانية على الاطلاق .

ولئن سما عبد الحميد بمعنى الصداقة والأخوة الى عالم « مثالي » ، ومنح الصديق من الصفات ما لا نجده في الواقع الا قليلا ، فإن تصوّره للصداقة والصديق يدلّ على بداية استقرار قيم جديدة في أذهان الناس ، قيم لا تتجسّم ، بالضرورة ، في الواقع المعيش . وإذا كان عبد الحميد يحلم بهذا الأخ أو الصديق . فليس بغريب أن يحلم الأدباء . ولعلّ تصوير الصداقة والصديق ، بهذه الطريقة ، يبرز دور الكاتب في التعبير عن القيم الأصيلة التي يسعى إنسان العصر الى تحقيقها . ولا يخفى أن عصر عبد الحميد عرف ظهور النزعة الشعوبية ، وهي نزعة تمثّل ، بوضوح ، أزمة الصراع الحضاري بين الأجناس البشرية غير المتألّفة . وقد وجدنا صدى لهذه الأزمة في شعر بشار بن برد وأبي نواس (القرن الثاني) . فلعلّ نزعة بعض الكتاب إلى إعلاء شأن الأخوة والصداقة تمثّل الوجه الآخر للعقلية الاجتماعية ، ولضمير الانسان العربي المسلم .

فالصداقة والأخوة ، تقدّم من هذه الزاوية ، أحد البدائل الانسانية التي تخفّف من حدّة الصراع بين الأجناس ، في صلب المجتمع العربي الاسلامي .

(2) أدب الصداقة عند ابن المقفع :

أفرد ابن المقفع لموضوع الصداقة باباً كاملاً في كتابه « الأدب الصغير والأدب الكبير » . فعرف بها ، وبشروطها ، وذكر طرق اختيار الصديق الأمثل . وقدم لقرائه قواعد سلوكية تخصّص طرق التعامل بين الأصدقاء (32) .

(32) الأدب الصغير والأدب الكبير ، ط دار صادر ، بيروت ، د . ت ، ص ص 104 ، 125 .

مغبوطاً فيها ، حالةً أنا في مكروهما ، بل أقول : إِنِّي قُهِرت ، فلما فزعت إلى ناصري الذي كنت أُعِدُّ ، وجدت مَنْ قهرني أَقلَّ نِيَّةً في ظلمي ، تَمَنَّ استنصرت في نُصرتي « (47) .

وإذا أضفنا إلى الرابطة الوجدانية التي تجمع بين الأصدقاء ، القيمة النفعية في العلاقات الاجتماعية ، فإننا نقف على تصوّر دقيق لمعنى الأخوة والصداقة في القرن الثالث ، تصوّر صاغه كلثوم بن عمرو العتابي (ت 220 هـ) في قوله : « أما بعد ، فإنَّ قريبك من قرب منك خيرُهُ ، وابن عمِّك من عمِّك نفعه ، وعشيرك من أحسن عشرتك ، وأهدى الناس إلى مودتك من أهدى برِّه إليك » (48) .

وبعد ، فقد واكب النثر الفني نشأة الصداقة وتطوُّرها في المجتمع العربي الاسلامي . فعبر عن تصوّر الناس لها ، وعن أهدافهم من عقدها .

وقد عدّها البلغاء والكتاب وجها من وجوه الأخوة يتجاوز المعنى المادّي إلى المعاني الأخلاقية والروحية والاجتماعية .

وتبيّن لنا ، من خلال المادّة الأدبية التي وصلتنا ، أنّ هذه الرابطة ليست ظاهرة حضارية دخيلةً على المجتمع العربي الإسلامي ، بل هي إحساس نشأ في ضمير المجتمع ، وقيمةً أخلاقية نتجت عن تطوره .

وإذا كان بعض الكتاب الذين اهتموا بموضوع الصداقة ، من غير العرب كعبد الحميد وابن المقفّع ، فإنّ آثارهم تعكس مظاهر تطوّر الحياة الاجتماعية والرؤى الأخلاقية والفكرية ، في صلب المجتمع العربي الاسلامي .

لم يقتصر هؤلاء الكتاب على تصوير صداقاتهم الخاصة ، بل رأوا في هذه الرابطة قيمةً مثلى لا ترتبط بظرف مخصوص ، فأخذ معنى الصداقة في آثارهم بعداً إنسانياً عاما .

(47) جمهرة رسائل العرب ، ج . 4 ، ص 42 .

(48) جمهرة رسائل العرب ، ج . 3 ، ص 478 .

(49) تندرج دراسة هذه الرسالة في نطاق اطروحة دكتورا الدولة التي نعدّها في موضوع الرسائل الأدبية .

ولئن بدا أدب الصداقة تعليمياً توجيهياً في جانب كبير منه ، فإنه أصبح الجاحظ مبحثاً من المباحث الفكرية ، ومجالاً من مجالات الإبداع في الكتابة .

وقد أفاد أبوحيان التوحيدي من هذا الأدب ، فاختار منه نماذج كثيرة ، وأضاف إليها مختارات مما قاله الشعراء في الصداقة ، ومما قالته حكماء اليونان ، وألف منها رسالته في الصداقة والصديق .

فلعلّ دراسة هذه الرسالة ، شكلاً ومضموناً ، تمكّنتنا من تحديد تصوّر شامل لمعنى الصداقة في الحضارة العربية الإسلامية ، قديماً (49)٪ .

صالح بن رمضان